الجزء الثالث — المجلد الثاني والثلاثون

مجلة
المجمع العلمي العربي

Jan. 25918

١ تموز سنة ١٩٥٧ م — ٣ ذي الحجة ١٣٧٦ هـ

عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

موجز ترجمته ، منزلته في الشعر ، البقية الباقية من شعره وأمثلة منه ، قصيدته اللامية المنسوبة الى السموءل ، قصيدته العينية

- ١ -

أبو الوليد عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي شاعر شامي من فحول الشعراء في صدر الدولة العباسية ، لم يبق من شعره إلا نزر يسير ، وهذا النزر اليسير نسب بعضه الى غيره ، فأصبح من الشعراء المغمورين على علو منزلته في الشعر .

ينتسب عبد الملك إلى بني الحارث بن كعب ، وهم بطن من مَذْحِج من العرب القحطانية ، كان منهم في الجاهلية ملوك نجران ، ومنهم بنو عبد المَدان وبنو الدِّيان [1] . أما رهط عبد الملك من بني الحارث بن كعب فقد كانوا بالفَلْجَة من أرض دمشق . قال المقدسي في صفة جزيرة العرب ص ١٣٠ :

(١) العبر لابن خلدون ٢/٢٥٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« ومن بني الحارث بن كعب بيت يسكنون بالفلّيجة من أرض دمشق ، منهم عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي » وقال أيضاً في ص ١٣٣ : « جبل عاملة يطل على الأردن والفلّيجة [١] وبها رهط من بني الحارث وهم رهط ابن عبد الرحيم الحارثي » .

ضاعت أخبار الحارثي ، وضاع شعره إلا قليلاً منه ، حتى بلدته فقد درست منذ زمان بعيد وخفي مكانها وتعذر تعيينها على صاحب معجم البلدان ، ولولا المقدسي الذي ذكر الفلّيجة عرضاً لما عرفنا أنها من أرض دمشق وعلى الأردن .

ولعل السبب في ضياع أخباره وشعره أنه عاش في زمان غير زمانه من حيث السياسة والشعر أيضاً ، فهو عربي قحطاني شامي ، والدولة حينئذ كانت قد انتقلت من الشام الى العراق ، وأصبح للفرس فيها نفوذ عظيم ، كما تضاءل نفوذ العرب ، وأصبح الشامي محلاً للريبة والتهمة ، ولمع نجم الشعراء الموالي كبشار بن برد وأبي العتاهية وصريع الغواني والعباس بن الأحنف وأبي نواس الذي كان يتعاجم في شعره . وأسلوب هؤلاء في الشعر يختلف عن أسلوب الشعراء الأمويين ، والحارثي أشبه بالأمويين منه بهؤلاء المحدثين الذي عاش في زمنهم .

قال ابن المعتز في طبقات الشعراء [٢] ص ٢٧٦ : « كان الحارثي شاعراً مفلقاً مفوّهاً مقتدراً مطبوعاً ، لا يشبه شعره شعر المحدثين الحضريين ، وكان نمطه نمط

---

(١) ورد في معجم البلدان : فَلَّيجَة بالتحريك أحسبه موضعاً بالشام والفَلَّيجات في شعر حسان بالشام كالمشارف والمزالف بالعراق .
وورد في تاج العروس : الفَلَّيجات : المزارع قال (حسان) :
دعوا فلجات الشام قد حال دونها طعان كأفواه المخاض الأوارك

(٢) طبعة دار المعارف بمصر تحقيق عبد الستار احمد فراج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأعراب ، ولما قال قصيدته المعروفة العجيبة انقادت الشعراء وأذعنوا ، وهو أحد من نُسخ شعره بماء الذهب ، والقصيدة التي ذكرناها هي هذه :

هأنذا يا طالبي ساعي ... محتضرٌ بَزِّي[1] إلى الداعي
أحمي حمى من غاب عن مذحجٍ ... ويحمد الشاهد إبقاعي
لا هَلِعٌ في الحرب هَاعٌ[2] إذا ... رنَّق[3] فيها كل هِلْوَاعِ
قد باضت الحرب على هامتي ... وصمتني أذُنا واعي
واستودعتني مقلتي آرقٍ ... لا يضع الجنب لتهجاع
مستحصد المِرَّة ذي همةٍ ... ضرَّار أقوامٍ ونفَّاع
لا تؤخذ الفِرةُ منه وإنْ ... هيج به هيج بمنصاع
أشوس ينضو الدرع عن منكبٍ ... مثل سنان الرمح شعشاع[4]
كما ترى أفطح[5] ذا رُقْطَةٍ ... تنجاب عنه هبوة القاع

فاجتمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيات ليست من نمط عصره ، وأن أحداً لا يطمع في مثلها . ولعمري إنه لكلام مع فصاحته وقوته بقدّر من يسمعه أنه سيأتي بمثله ، فإذا رامه وجده أبعد من الثريا ، وكذلك الشعر المتناهي الذي ليس قبله في الجودة غاية . وقد سئل بعض العلماء فقيل له : ما الشعر عندك ؟ قال : السهل الممتنع » انتهى .

لا نعلم من أخبار الحارثي إلا شيئاً يسيراً جداً يؤخذ من شعره على سبيل الاستدلال في الأحوال والحوادث التي قيل فيها أو أشير اليها . من ذلك :

(١) البَزّ : السلاح . ويرى محقق الكتاب أن الصواب (يزى) ولا نرى ذلك لأن المقام مقام حماسة ونجدة لا مقام إحسان وصلة .
(٢) هاعٌ : خَفٌ وجزع . ورجل هاعٌ لاعٌ : جبان ضعيف .
(٣) في الأصل : ريّق . ومعنى رنّق : أقام واحتبس وانتظر . والهلواع : السريع .
(٤) الشعشاع : الطويل .
(٥) الأفطح : العريض الرأس والأرنبة ، ويريد به الثعبان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن عبد الملك لم يبق في بلدته الفلّجة فهي أضيق من أن تتسع لنبوغه في الشعر وطموحه فيه ، وقد ذكرها في شعره بصيغة التصغير فقال :

لصيّفت السّجون ثم تخيّرتْ لها من شماريخ الفُلَيْجة مرتعا

فقصد بغداد كعبة الشعراء يومئذ ، ويظهر أنه أخفق في مسعاه ورضي من الغنيمة بالإياب ، ولكن حيل بينه وبين الإياب ، فقد غضب عليه الرشيد وأمر بسجنه لسبب لا نعلمه ، فكتب الى أخيه من سجن الرشيد [1] شعراً يقول فيه معاتباً :

فلو كان[2] ما بي ـ لا يكنْ ـ بك لاغتدى إليك وراح البرُّ بي والتقرّبُ

وقال أيضاً :

فإني إذ[3] أقيك بقيك مني ـ فلا تسبقْ به ـ علقٌ نفيسُ

واسم أخيه سعيد وقد توفي قبله فرثاه عبد الملك بقصائد أعجب بها الرواة والادباء ودلت على حسن إخائه ووفائه ، وسننقل ما بقي منها .

وخلّف عبد الملك ولداً اسمه محمد كان شاعراً أيضاً ، ورد في حماسة ابن الشجري [4] ص ٢٣٥ قوله :

وكتيبةٍ كالليل بل هي أظلمُ فيها شعار بني النزال تقدّموا
نهنهتُ أولاها بضربٍ صادقٍ هبرٍ كما شقّ الرداءَ المُعْلَمَ
وعليّ سابغةُ الذيولِ كأنها سِلْخٌ كسانيهِ الشجاعُ الأرقم

وحفيده الوليد بن محمد كان شاعراً أيضاً ، ورد في حماسة ابن الشجري ص ١٨٧ في باب صفات النساء ما نصه : قال الوليد بن محمد بن عبد الملك الحارثي :

عُقِدَ الحِقابُ[5] على نقاً من فوقهِ لَدْنٌ يميسُ من القَنا الخَطّارِ
فكأن أغصاناً تهـز برودها والحلي فوق نقا الكثيب الهاري

(١) قانون البلاغة ضمن رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي ص ٤٤٨ الطبعة الثالثة .
(٢) في الأصل : فلو يك ما بي . . . .
(٣) في الأصل : إنْ
(٤) صحفتْ نسبة الحارثي في هذه الطبعة الى الحلي .
(٥) الحِقاب : شيء تتخذه المرأة تعلّق به مماليق الحلي تشده على وسطها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتنفست[1] عن خمرةٍ مكبوبةٍ بمسيل رابيةٍ على نوّار
فغدتْ مبرقعةً فلم أر قبلها شمساً تلاثُ ببرقعٍ وخمار

وهكذا تسلسل الشعر في عبد الملك ونسله جيلاً بعد جيل .

* * *

شعره

أما البقية الباقية من شعر عبد الملك فهي في الحكمة والحماسة والفخر والمروءة والفروسية والرثاء والغزل وما إليها . وليس له في المدح والهجاء شيء . وأسلوبه عربي خالص متأثر بالإسلام ، جزل فصيح محكم رصين ، بعضه أشبه بشعر الأعراب . والذين يروون شعره من الرواة والأدباء والنقاد يبالغون بتقريظه فيجعلونه فوق المحدثين وفي الطليعة من الشعراء الإسلاميين .

وهذه البقية الباقية من شعره موزعة في كتب الأدب والمختارات منها : حماسة أبي تمام الطائي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، وأخبار أبي تمام الطائي للصولي ، ومحاضرات الراغب الإصفهاني ، والإعجاز والإيجاز وخاص الخاص للثعالبي ، وربيع الأبرار للزمخشري (مخطوط) ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، وزهر الآداب للحصري ، والعمدة لابن رشيق ، وحماسة ابن الشجري ، والحماسة البصرية لأبي الحسن علي بن أبي الفرج البصري (مخطوط) ، وجمهرة الإسلام ذات النثر والنظام للشيزري (مخطوط) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، والمضنون به على غير أهله لعبد الوهاب الخزرجي الزنجاني ، وغيرها .

وهذه أمثلة من شعره تدل على طبقته العالية وأسلوبه الجزل قال يتغزل[2] :

سلبتِ عظامي لحمها فتركتها مُجَرَّدةً تَضْحَى إليكِ وتَخْصَرُ

(١) في الأصل : وتنفثت .
(٢) شرح حماسه أبي تمام الطائي للتبريزي ج ٣ ص ١٩٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأخليتها من مُخِّها قتركتها ... أنابيبَ[1] في أجوافها الريح تَصْفِرُ
إذا سمعتْ باسم الفراقِ تقعقعتْ ... مفاصلها من هول ما تتنظَّرُ
خذي[2] بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري ... بيَ الضُّرَّ إلا أنني أتستَّرُ
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمةٌ ... عليَّ ولا لي عنك صبر فأصبِرُ
فو الله ما قصَّرتُ فيما أظنه ... رضاكِ ولكني محبٌّ مُكفَّرُ

وقال[3]:

وكذبتُ طرفي عنكِ والطرف صادقٌ ... وأصمتُ أذني فيك ما ليس تسمعُ
وما أسكن الأرض التي تسكنينها ... لئلا يقولوا صابرٌ ليس يجزع
فلا كمدي[4] يغني ولا لك ذمةٌ ... ولا عنكِ إقصارٌ ولا فيكِ مطمع
لقيتُ أموراً فيك لم ألق مثلها ... وأعظم منها منك ما أتوقع

وقال يرثي أخاه سعيد بن عبد الرحيم الحارثي[5]:

إني[6] لأرباب القبور لغابطٌ ... بسكنى[7] سعيدٍ بين أهل المقابرِ
وإني لمفجوعٌ به إذ تكاثرتْ ... عُداتي ولم أهتف سواه بناصر
فكنتُ كمغلوبٍ على نصل سيفه ... وقد حزَّ فيه نصل حَرَّانَ ثائر
أتيناه زوَّاراً فأمجدنا قِرىً ... من البث والداء الدخيل المخامر
وأبنا بزرعٍ قد نما في صدورنا ... من الوجد يُسقَى بالدموع البوادر

---

(١) ويروى : قوارير في ...
(٢) ويروى : خذي بيدي ثم انهضي بي تبيَّني .
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٢٤ .
(٤) في العمدة لابن رشيق ٢ / ٢١ : فلا كمدي يغني ولا لكِ رقةٌ .
(٥) شرح حماسة أبي تمام الطائي للتبريزي ٢/١٧٧ وزهر الآداب للحصري ٤/١٠٧
(٦) في زهر الآداب : وإني ....
(٧) في زهر الآداب : لسكنى ....

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولمَّا حضرنا لاقتسام تُراثه أصبنا عظيماتِ اللُّهَى والمآثر
وأسمعنا بالصمت رَجْعَ جوابه فأبلغْ به من ناطق لم يحاور

وفي أخيه سعيد يقول[1] :

إن سليما وإن ظرفا وإن جريالةً كُمُولا
نعيم دنيا وكل دنيا مصيرها عنه أن تزولا
إذا أرت فرحةً أخاها مالت إلى ترحة بديلا
وكل خير وكل شر فيها قمين بأن يحولا
إن سعيداً شقيق نفسي أبقى لنفسي جوىً دخيلا

وقال يتغزل :

أتى دون حلو الوعد من تكتم المطلُ وأيُّ هوىً يبقى إذا لم يكن بذلُ
فقالت وأبدى الوجد مادون صدرها فلم يبق بابٌ دون سرٍّ ولا قفل
أأشعرت بي أهلي عشية زرتنا جهاراً، وما عذري وقد شعر الأهل
فقلت فذا قد كان ما ليس راجعاً فهل عندكم إلا التحفظ والعذل
فقالت وما أزرى بنا من تحفظٍ علينا وقولي في عواقبه الذحل
فقلت لها ما زرتكم قاصداً لكم وإن كان ما في الناس لي ولكم مثل
وما جئتكم[2] عمداً ولكنّ ذا الهوى إلى حيث يهوى القلب تهوي به الرجل

وقد قرظ الثعالبي البيت الأخير من هذه القطعة وأكبره ، قال في كتابه خاص الخاص : « من عجيب الشعر وطريفه ومليحه قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي في معنى الصوفية ، جوّده وأحسنه وأحسن الإفصاح عنه وأبرزه في أبهى معرض وأرسله مثلاً سائراً ، وإن كان لم يعرف الصوفية ومذهبهم : وما زرتكم عمداً .... »

(١) طبقات الشعراء ص ٢٧٨ .
(٢) وما زرتكم . . . الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ١٧٧ وخاص الخاص له ص ٨٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال في كتابه الإعجاز والإيجاز : « أمير شعره الذي لم يُقَل مثله : وما زرتكم عمداً ٠٠٠٠ »

وقال [١] :

أقول وقد صاح ابن دأية[٢] غدوةً ... ببين النوى لا أخطأتك السبائكُ
أفي كل يومٍ رائعي أنت روعةً ... ببينونة الأحباب عرسك فاركُ
ولا بضت في خضراء ما عشت بيضةً ... وضاقت برحباها عليك المسالكُ

وقال [٣] :

وما روضةٌ داريةٌ أسديةٌ ... مخمةٌ زهراء ذات ثرى جَعْد [٤]
بأحسن من حرٍ تضمَّنَ حاجةً ... لحرٍ فأوفى بالنجاح مع الوعد

وقال في شهر رمضان [٥] :

شهر الصيام وإن عَظَّمْتَ حرمته ... شهرٌ طويلٌ بطيء السير والحركهْ
يمشي الهوينا إذا ما رام فرقتنا ... كأنه : بطةٌ تَنْجَرُّ في شبكه
لا يستقرُّ [٦] فأمَّا حينَ يطلبنا ... فلا سُلَيْكٌ [٧] يُدانيه ولا سُلَكه
كأنه طالبٌ ثأراً على فرسٍ ... أجَدَّ في إثْرِ مطلوبٍ على رَمَكه [٨]
يا صدقَ من قال أيامٌ مباركةٌ ... إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركه

(١) ربيع الأبرار للزمخشري ج ٤ ورقة ٢٠٣ ظ مخطوط في دار الكتب الظاهرية .
(٢) ابن دأية : الغراب .
(٣) شرح مقامات الحريري للشريشي ج ١ ص ٥٨ .
(٤) في الأصل (صمد) والصواب ما أثبتناه يقال : تراب جعد : أي ندٍ .
(٥) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٦) كذا في الأصل ولعل الصواب (لا يُستَفَزّ) .
(٧) سُلَيْك بن السُّلَكة : من عدائي العرب المشهورين .
(٨) الرَّمَكة : البرذونة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال [١] :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى له أحداً يزري عليه وينكرُ

وقال نيمن قصر عن آبائه [٢] :

شريفٌ بجدبهِ وضيعٌ بنفسه لئيمٌ محياه كريم المركّبِ

قال الراغب : أخذه أبو تمام فقال :

يا أكرم الناس آباءً ومفتخراً وألأم الناس مبلوًّا ومختبرا

وقال [٣] :

لاقيت من حبها ما لو على جبلٍ يلقى لطارت شقاقاً منه أفلاقُ

وقال [٤] :

أرانا به الله ما لم تزل تبشرنا حسنات الظنون

قصيدته اللامية

أما قصيدته اللامية التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميلُ

فالمشهور بين الناس اليوم أنها للسموءل بن عادياء ، وعلى ذلك يرويها الأدباء في العصر الحاضر ويستظهرها الطلاب ، وهي من عيون الشعر العربي . على أن عدداً من الرواة الثقاة والأدباء والعلماء كان يرى أن القصيدة ليست للسموءل وإنما هي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وبعضهم كان يرى أن بعض أبياتها

(١) محاضرات الراغب الإصفهاني ج ١ ص ١٦٢ .
(٢) محاضرات الراغب الإصفهاني ج ١ ص ٢١١ .
(٣) محاضرات الراغب الإصفهاني ج ٢ ص ٥٠ .
(٤) محاضرات الراغب الإصفهاني ج ٢ ص ٧٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للسموءل وأكثرها للحارثي ، فمن يرى أنها للحارثي ابن الأعرابي [1] والمرزوقي ، وروى أبو بكر الصولي في أخبار أبي تمام ص ١٤٠ بضعة أبيات منها وقال : (ومما يروى للسموءل وهو للحارثي) أما صاحب الأغاني فلم يثبت للسموءل منها إلا ثلاثة أبيات . وأوردها المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام على أنها للحارثي وقال وتنسب للسموءل ، وقال التبريزي في شرحه لحماسة أبي تمام إنها تنسب لعبد الملك الحارثي ونقل ذلك عن ابن الأعرابي . وأورد صاحب المضنون به على غير أهله ص ٣٧ بضعة أبيات من أولها ونسبها للحارثي وقال : ويقال انها للسموءل » .

ومن الأدلة على أنها للحارثي قوله فيها :

وما مات منا سيدٌ حتف أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيلُ

قال المرزوقي : « وقوله مات حتف أنفه يقال إن أول من تكلم به النبي ﷺ » .

وقال التبريزي : « ويقال إن أول من تكلم بقولهم حتف أنفه النبي ﷺ » .

فلا يمكن والحالة هذه أن يقال هذا في الجاهلية .

ومن الأدلة أيضاً قوله :

فان بني الدَّيان قطبٌ لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجولُ

وبنو الدَّيان أجداد عبد الملك الحارثي . قال التبريزي : « قال أبو محمد الأعرابي في رده على النمري قوله قال السموءل :

وأسيافنا في كل غربٍ ومشرقٍ بها من قراع الدار عين فلولُ

هذا البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي لا للسموءل بن عادياء الغساني ،

(١) ديوان السموءل تحقيق الأب لويس شيخو ص ٢٥ و ٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويدلك على ذلك قوله في القصيدة : (فان بني الدبّان قطبٌ لقومهم) والدبّان هو يزيد بن .... بن الحارث بن كعب » قبيلة عبد الملك الحارثي .

* * *

وأطول ما بقي من شعره قصيدة عينية يبلغ عدد أبياتها نحواً من مائة بيت يرثي بها أخاه سعيد بن عبد الرحيم الحارثي ، أعجب بهـا الرواة والشعراء ، وفضله بها الأصمعي على جرير والفرزدق والأخطل ، ظفرنا بها كاملة برواية الرياشي عن الأصمعي في مخطوطة جمهرة الاسلام ذات النثر والنظام لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود بن نعمة بن رسلان الشيزري سننشرها بعد تحقيقهـا في القسم الثاني من هذه المقالة إن شاء الله .

يتبع : خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net